

في سبيل الجمهور

نشر الناصري بالعدد الاول، من السنة الثانية، من مجلته النشء الجديد، نبذة من خطبته التي القاها على لقيف من الشباب الناهض في البصرة حول « الحرية الفكرية » تحت عنوان « الحرية الفكرية .. عبودة الامم ورمز حياتها ».

والخطبة جديرة بالقراءة والدرس لان الناصري، فضلا عن انه اورد فيها ألمع التعابير، وابدع في وصف الحرية، اذ شبهها بالغادة الهيفاء، وبغيرها من الالفاظ التي اعتدنا سماعها من « اللفظيين »؛ قد استند الى نظريات سلامة موسى لتكون قوية الحجة، لان لنظريات الاستاذ قيمة في العالم العربي، واذا وردت في اي مقال، او خطبة فمن الحماقة، والجنون المطبق ردها؟ لانها من بنات افكار الاستاذ، والاستاذ « مفكر حر » - كما يلقيه تلامذته - لانه يظهر لك الحقائق، والظواهر الاجتماعية كما هي، دون ان يتعيز لمذهب، او يتعصب لرأي.

وما اكثر شيوع اطلاق عبارة « المفكر الحر » على امثال سلامة موسى، وما اسوء استعمالها. ولسنا ننكر على الرجل حريته في التفكير، او ليست مقالاته ضد العرب، والشرق في كتابه « اليوم والغد » اكبر برهان على ذلك؟

وان يكتب سلامة موسى عن العرب - الاسلام طبعاً - فانه يكتب مدفوعاً بدافع التعصب الديني، مدفوعاً بما يوحيه اليه عقله الباطن من تعاليم

الكنيسة التي تلقاها في صغره. ولو حذف اسم الاستاذ من مقال ينشره من العرب لما شك القاري بان كاتب المقال قس من قسوس القرون الوسطى.

واذا حاول تلامذته نفي التعصب عنه مستندين في ذلك الى ما ينشره الاستاذ عن النصرانية، وعن « الحاديات » وكفره بالاديان، فذلك لا يكفي اذ ان علم النفس الحديث يؤيده، والعلامة « فرويد » الذي ذكر الاستاذ بعض نظرياته في كتابه « العقل الباطني » يثبت ان الاحاد هو تصعيد للايمان القوي، والملاحد اكثر تعصباً لدينه. و « فرويد » عالم ذائع الصيت، اصبحت نظرياته، في علم النفس، تدرس في كل جامعات اوربا وحتى في تركيا.

وسلامه موسى - كما يعرف العالم العربي - عالم في كل شيء؛ عالم في النفس، في التاريخ، في « نشوء فكرة الله والاديان » كما انه عالم اجتماعي كذلك. لذلك اورد « الناصري » نظرياته في خطبته، لتكون قوية، ومبنية على اساس علمي. ولكننا مع الاسف الشديد - لا نرى رأي الاستاذين سلامه، والناصرى في « الحرية » او « الحرية الفكرية » كما ان نظريات الاول لا تستند الى الواقع، وليست من علم الاجتماع في قليل او كثير؛ ولعل « الناصري » يفضض اذا قلنا ان النظريات التي اوردها عن الاستاذ: ماهي الا نوع من هذيان المستريا. وان كان قد اصاب الاستاذ في النظرية الثانية عن « الحرية الفكرية » فانه ذلك الاصدفة كمثل من يقذف حجراً في الهواء، فيقتل عصفوراً، مع انه لم يقصد قتله. و « الناصري » كغيره من الشبان النورين، يرى ان الجمهور - العوام طبعاً - هو العقبة الكؤود في سبيل « الحرية الفكرية ». لذلك تراه يحمل عليه غاضباً، صاخباً، صارخاً

بأنه - الجمهور - ليس له دين ، ولا شريعة ، فهو لا يحكم الا عاطفته في كل شي .

فلا نلومن الناصري على صرخته هذه في وجه الجمهور ، لانه يعيش في محيط العراق ، والمحيط هو الذي يكون عقلية الفرد ويوحى اليه في تكوين نظمه ، واخلاقه ، وعاداته ، وفي تفكيره كذلك . والعراق لا زال في دور الاقطاع ، دور « الفردية » ، فللفرد هنا قيمته ، وهو في استطاعه ان يبتلع المجموع كله ، والنظم تؤيد ذلك . فلا عجب اذن من حملة الناصري ، فهو لا يريد من الجمهور غير ان يحكم عقله ، فيتبع الفرد ، ويعبده ، ليكون آله صما . بيده يسيره كيفما يشاء . وهذا منتهى الافراط في الفردية . .

يحمل « الناصري » على الجمهور لانه لا يحكم الا عاطفته ، مع اننا نعلم ان العواطف هي الكل في الكل ، وبدونها تصبح الحياة عبثاً ولا شك ، والبشرية تعيش ، وتقدم بالعواطف لا بالعقل .

هذا تاريخ البشرية قلب صفحاته ، وهذه حياتنا اليومية تأملها فهل تجد طابع العقل عليها ؟ اولست تجد للعواطف الفعل الشديد في تسييرها والدافع الاول في تطويرها ، اولست هي التي كونت تاريخ البشرية ، وحدثت الانقلابات والثورات ، والتطورات ؟ ماذا كان يكون ، لو يفكر الثوري التارك اهله . ومن يعز عليه وراء ظهره ، مستقبلاً الموت بصدر رحب غير هيب منه ؟ ويحكم عقله - كما تريد يا ايها الناصري - فيما سيصيبه بعد قليل من جهاده ؟ ماذا تظنه فاعلاً لو فكر بانه سيقم بعد ساعة صريعاً يتخبط في دمايته ، تاركاً اهله واطفاله للقدر المشؤم يتصرف بهم . بينما يروح الذين يدافع عنهم ، ويناضل ، فرحين مسرورين يتنعمون في قصورهم ، وبين رفيقاتهم ؟

اراه يا حضرة الناصري ، لو حكم عقله ، وتدبر وحسب للعواقب حسابها

مستطيعاً ان يخطو خطوة واحدة نحو الحرب ، نحو الدفاع عن الوطن المقدس او نحو الثورة ؟

أى شي يجذبنا نحو الاحساس بالجلال اذا نظرنا الى صورة جميلة ، منظر طبيعي جميل ؛ العاطفة ام العقل ؟

وما هو الميل الجنسي ، وما هو الحب ، وما هي غريزة بقاء النوع اليس الدافع لكل هذه العواطف ؟

للاستاذ « الناصري » مبرر قوي في حملته على الجمهور ، لانه يرى « ان الجمهور الذي قتل لويس السادس عشر ، ومارى انطوانت ، باسم الحرية ، والمساواة ، هو الذي ضحى بالثالثات من النفوس البريئة ، واخذ انقاس الالوف من ذوي الافكار الحرة ، باسم الحرية والمساواة . والجمهور الذي اعدم القيصر ، وافراد عائلته باسم الحرية والمساواة اعدم في الوقت نفسه الملايين من الاحرار والمصلحين باسم الحرية . والمساواة كذا ... »

ونعم هذا المبرر . ولكن « الناصري » لو تدبر قليلاً لما كبا هذه الكبوة . اذ ان كل من قرأ التاريخ ، يعلم ان قتل الجمهور لويس السادس عشر وزوجه كان امراً تتطلبه الثورة ، وكان الجمهور محقاً في قتلها .

ماذا تريد ان يفعل الجمهور بملك ، بلغ الظلم والعسف في حكمه ، ان يبقى الفلاح طول الليل هو وزجه واطفاله في البرد ، يضربون الماء بعصيمهم ليسكتوا الضفادع ، لينادم رئيس الاقطاع هادئاً اقبالون ، يا حضرة الناصري ، يده ام يمزقونه ويرفعونه على اسنة رماحهم .

وماذا يفعل الجمهور بملكه تقتضى ليلتها ، ونهارها في احضان عشاقها ، واصحابها ، بينما افراد الشعب جياعى يهيمون على وجوههم تطلباً للخبز .

وكيف تريد الجمهور ان يعامل تلك النفوس البريئة - بزعمك -

التي حاولت إعادة حكم لويس السادس ، وماري انطوانيت ، تلك النفوس التي يسوءها ان ترى الحكم للجمهور ؟

وماذا تريد ان يفعل الجمهور بالقيصر ، و بافراد عائلته بعد مارأي الالوف من ابنائه الاحرار الثوريين ، يساقون الى مجاهل سيبيريا ، فوق تلك الثلوج الكثيفة ، مشياً على الاقدام ، واذا مات احد قطعوا يديه وارسلوه كدليل على موته ؟

وكيف تريد ان يعامل الملايين من الملكيين الذين يلذ لهم تلك الرزايا التي كان يناهاها الجمهور منهم ؟ افلا يعدمهم ، ويقصيهم الى ما بعد القطب الشمالي ؟

فلا حاجة لك ايها الناصري ان تتوجع آسفاً على تلك الضحايا ، فهذه الضحايا لم تؤثر على سير البشرية ، وليس من ثورة تحدث دون ان تراق فيها دماء ، لان ذلك من ملزماتها .

يظن الناصري وغيره ، ان « الحرية » او « الحرية الفكرية » هي كحرية الطير ، والحيوان الوحشي ، او البلبل الذي يغرد فوق الاغصان في الغابات . ويعتقد هؤلاء ان البدوي اكثر حرية من التمدنين .

وهذا خطأ محض ، بل هو جهل لموضوع من اشد ما اشغل افكار الاجتماعيين . فالانسان لم يكن كالحوانات فرد يأفئ حياته ، بل هو حيوان اجتماعي لا يستطيع ان يعيش بدون جماعة ، وهو مضطر الى معارفها ، والنزول عند ارادتها ، وعاداتها ، بضرورة حاجته للاكل ، والملبس ، والمأوى ، فالفرد ليس في وسعه تهيئة ذلك . او الدفاع عن نفسه ، والتغلب على المحيط بنفسه ، فكل فرد من افراد الجماعة يقوم بعمل اجتماعي تجاه الآخر ، ومن

هذه تتكون الروابط الاقتصادية ، فواحد ، مثلاً ، يخبز و آخر يحرق ويزرع ، وثالث يعمل الآلات وهكذا وهذه الروابط الاقتصادية تكون بسيطة جداً في اولها ، فلا تجعل فروقاً اقتصادية بين افراد الجماعة ثم تتوسع وتتعد كماً تقدم الانسان في طرق انتاجه ، وتغلبه على محيطه بما يستخدمه من آلات ، وادوات ، فبينما تكون وسائل الانتاج - عند بساطتها - ملكاً لجميع افراد الجماعة ، وذلك كل حسب ما يحتاج اليه كما هي الحال في البداوة الاولى تصبح بتقدم البشرية . والانتاج بيد افراد قليلة من الجماعة . فتنشأ من ذلك الفروق الاقتصادية . فالتوحشون مثلاً يذهبون جميعاً للصيد ، فيصطادون واذا ما عادوا بصيدهم ، توزعوه فيما بينهم كل على قدر ما يكتفيه . ولكن الامر يختلف في دور البداوة ، والاقطاع ، كما انه يختلف ، كل الاختلاف في دور الصناعة والتجارة . ففي دور البداوة او الاقطاع مثلاً ان ما تحصل عليه الجماعة من صيد ، او غنيمة يؤتى به الى الشيخ ، او رئيس الاقطاع وهو الذي - بحكم مركزه وسلطته على الجماعة - يوزعه ، فيعطي عبدالله الكراع ، لانه فلاح عادي ، بينما يعطي محموداً نصف « الشلو » او الغنيمة لانه من المتقدمين عنده ، او من ذوي قرابه ، مع ان عبدالله هو الذي اكتسب الغنيمة ، او اصطاد الصيد . وعبدالله لا يستطيع ان يطالب الشيخ ، او رئيس الاقطاع ، لان المطالبة تعد اذ ذاك صلافة ، وعدم اطاعة للرئيس . وليس هذا الفلاح وحده ، هو المهضومة حقوقه بالنسبة لغيره ، بل هناك كثير من امثاله يعاملهم الرئيس كمااملته . فمن هذه الفروق يؤلف الفلاحون طبقة تختلف في عاداتها ، واخلاقها ، وفي تفكيرها وتصوراتها عن جماعة الشيخ ، ويتوسع هذا الاختلاف بمرور الايام ، وبتنقل البشرية من دور الى دور ، وتتعظم سلطة احدهما - وهي التي بيدها الثروة ووسائل الانتاج -

على الاخرى حتى تصل الى حد من الرقي المدني ، تصبح فيه الفروق واضحة
فينشأ من ذلك نزاع اقتصادي بين الطبقات وهذا النزاع يسمى « نزاع
الطبقات » كما هي الحال في اوربا بين العمال والرأسماليين . وتكون الطبقة
التي يدها وسائل الانتاج عادة — هي المسيطرة على بقية الطبقات
لذلك فهي تسن القوانين ، لتوقف هذا النزاع عند حده ، وتجعل حكمها ،
ونظامها مشروعا ، وامتلاكها لكل وسائل الانتاج ضروري وتؤيد ذلك
بالقوة المسلحة التي تستخدمها ، وبمساعدة رجال الدين في سنهم القوانين
الدينية .

وهذه الفروق تجعل لكل طبقة وجهة نظر في الحياة وظاهراتها وفي
الظواهر الاجتماعية كذلك . ففهوم « الحرية » عند الطبقة المسيطرة مثلا
هي ان تعيش هادئة مطمئنة ، وان لا يفاق راحتها الطبقات التي تحكمها ،
واذا ما حاولت احدى هذه الطبقات المطالبة باكثر مما تراه تستحقه ترى ان
من « حريتها » سحقها . كما ان الطبقة المسيطر عليها ترى مثلها الاعلى في
« الحرية » هي ان تعيش عيش الطبقة المسيطرة عليها ، وترى من « حريتها »
ان تثور عليها وتحطمها ، وتحل محلها .

فمفهوم « العدالة » و « الشرف » و « الفضيلة » يختلف كذلك . فما
تعتبره طبقة جنائية كبرى ، تعتبره الاخرى فخراً . فربئس الاقطاع مثلا
يستطيع ان يقتل اي فلاح من فلاحيه بسهولة ، وذلك بحجة انه عصا امره
او حاول قتله ، او — ليكون الجرم اعظم — دافعا عن شرفه ، لان الفلاح
دخل بيته ونظر الى حرمة المصون ، فهو يقتله كمن يقتل صيداً في الصحراء
دون ان يطالب احده . ولكن لو جرح فلاح سيده ولو في الدفاع عن نفسه ،
بعد ذلك اعظم جنائية ، فينزلون به اشد العقاب والعذاب .

والفضيلة عند رؤساء الاقطاع هو ان يكون سفاكا — وهذا يعد شجاعة —
فارساً ، متعجرفاً لا يقترب من الفلاح ليحفظ مركزه كرئيس محترم لكن
فضيلة الفلاح ؛ ان يكون مطيعاً للرئيس ، غبوراً على مصلحته ، صبوراً على
البلوى ، واذا حضر مجلس الرئيس فيجب ان يجلس عند احذية ضيفه ،
لا على فراشه ، واذا غضب عليه يوما ، وضربه على خده الايمن فمن الادب
والكياسة ان يدرله الخد الايسر ، ليكون باطاعته هذه محبوباً عند
الشيخ ، ومكرماً عند الله . هذه الذلة وهذه المسكنة وتلك الفطرسه ،
والجبروت ، والكبرياء تؤيدها الاديان والقوانين .

ولكل من الطبقات ادب خاص . و « وجهة نظر » في الاجتماع وفي
تفسير ظاهراته . فالطبقة المسيطرة ترى نظامها هو الدائم الابدي ، وادابها
هي التي يجب ان تسود المجتمع كله . ولها زعماء وكتاب ، يعملون على توطيد
واستقرار هذا النظام . بينما الطبقة المسيطر عليها ترى عدم مشروعية ذلك
النظام وسخفه وافهام الجمهور بفساده بما يكتبه كتابهم ومفكروهم ، وما ينشرونه
من اراء وظريات مستندة الى الواقع . ويكون ذلك — عادة — عندما
تصبح الطبقة المسيطرة عاجزة عن السير بالمجتمع الى ابعد ما وصلت اليه طرق
الانتاج ، ذلك لمحافظة على تقاليدها ، وعاداتها ، ونظمها الحاصلة من نتيجة
محيطها الاقتصادي . وبعد ان ترى الطبقة المسيطر عليها ، انها احق بالحكم
منها ، والسيادة تثور على تلك فتحطمها ، وتغير ما سنته من نظم وقوانين
حتى طرق الحياة المعيشية ، والعائلية ، فتنادي بالحرية الفكرية ، والمساواة ،
والعدالة بين افراد الجمهور ، ولكن هذه الحرية التي تنادي بها لا تتعدى
مثلها الاعلى في « الحرية » . فتصبح افكار الطبقة ، المغلوبة ، وادابها ، وكل

مظاهرها قديمة ورجعية بنظر الطبقة الجديدة فنقضي عليها بالشدة والعنف ، وتطلق الحرية في التفكير من وجهة نظرها . ولنضرب مثلاً لذلك .

ففي الدور الاقطاعي الذي كان يمثل السلطان والحمد لله كان الادب سلطاني ^(١) بل كل مظاهر الحياة الاجتماعية « سلطانية » اقطاعية فلا نجد طابعاً على كتاب ادب ، او اجتماع ، او تاريخ غير هذا الطابع . ولقد بلغ توطيد هذا النظام الاقطاعي الى درجة ، ان مجرد ذكر كلمة « ثورة » او « انقلاب » او وجود كتاب في « الثورة الفرنسية » عند فرد من افراد الجمهور ، كاف ، ومبرر لفيه او اعدامه لانه يريد ان يشق عصي الطاعة على امير المؤمنين ، والاخلال بالامن العام .

وكانت كل الخطب التي يتلوها رجال الدين على المنابر ، والمواعظ التي يلقيها الوعاظ ، حثاً على اطاعة « السلطان » والدعاء له ببقاء ملكه ، وسلطانه ولكن الطبقة التي كان لها حق الحكم ، والسيادة كانت تعمل في الخفاء وفي العلانية على تقويض ذلك النظام ؛ ولما حانت الفرصة ، واصبحت الحالة الاقتصادية تتطلب سيادتها ، وسيطرتها ثارت على ذلك النظام فقوضته واعطت الحرية للجمهور ، ولكن حددت الحرية بان لا تتعدى حدود « الشروعية »

وليست هذه الحادثة وحدها في التاريخ ، بل التاريخ مليء بمثل هذه الحوادث لا محل لذكرها وتعدادها هنا .

فيتضح مما تقدم ان « الحرية » او « الحرية الفكرية » ليست كما يتصورها الناصري عادة هيفاء او بلبل طليق حر . بل هي تحرير طبقة من سيطرة طبقة اخرى تحريراً ادياً ، وعند تحريرها تنال ما لم تكن تناله من قبل

(١) وهو الذي يسميه الترك ادب الباب له اله .

مكتبة التجديد العلمي الفلاسفي في تركيا

١ - شيء عن حياة نيتشه الفيلسوف الالماني وفلسفته -

كان نيتشه في صغره مغرماً بالموسيقى ، مغرماً بسماع انغام (باخ) وبيتهوفن و (موزار) ومن اليهم من عظماء الموسيقى الالمانية الاصولية (كلاسيك) وقد الف بضع اغان وهو في التاسعة من عمره . وكان بعد ذلك يؤمل ان يكون مؤلفاً موسيقياً . لكنه لم يستطع رغم كثرة مساعيه وجهوده ان يرتفع الى مصاف الموسيقيين البارعين اهل الفن واساتذته . فكف عن المضي لطيبته وان كان غرامه بسماع الموسيقى لم يصبه اي فتور .

وكان ينظم الشعر . وقد قصد بين عام ٨٥٨ و عام ١٨٦٤ كثيراً من القصائد . نشرتها أخت له بين دفقي كتاب كان حظه من الاقبال عادياً . فلما القصائد التي حوى فكانت مفعمة بشعور نيتشه الرقيق . وكان اسلوب نظمها من قبيل السهل الممتنع ، ولم تظهر آراؤه الفلسفية الا بعد عام ١٨٦٤ .

وكان اذ ذاك مضطرباً تتنازعها الشكوك والخيرة .

وفي عام ١٨٧٧ كانت قصائد جوامع لفلسفته ونوازع الفكرية الغريبة وكانت تجذب القارئ اليها ، لما فيها من الآراء العصبية ، والنظريات الصادقة ذات الالوان العاطفية الحساسة القوية . وكان يشعر قراؤه اذ ذاك أنه يقطع لهم

من حرية في التفكير ، وفي الاسباب المعيشية ، هذا هو رأينا في الحرية وسنعود الى طرقت هذا الموضوع مرة اخرى عند سنوح الفرصة .